طه حســـــين ورؤيته النقدية في معلقتي زهير وعنـــترة ـ دراسة وصفية تحليلية ـ

د. خليفة أبوبكر عبد القادر *ـ قسم اللغة العربية ـ كلية الآداب والعلوم المرج جامعة بنغازي

Khlifaalkndro77@gmail.com

تاريخ الاستلام 15/ 1 / 2025 تاريخ القبول 2/ 6 /2025م

Taha Hussein and his Critical View of the Mu'allaqat of Zuhair and Antarah "A descriptive and analytical study"

Dr. Khalifa Abu-Bakr Abdel Qader* - Department of Arabic Lnaguage, Faculty of Arts and Languages, University of Benghazi

Abstract

I had three critical pauses with the book Wednesday Talk, which were represented in three studies. The truth is that the book is rich with critical opinions that played a prominent role in the critical movement towards “ancient” pre-Islamic poetry. If we turn our backs on the issue of doubt in pre-Islamic poetry and turn our faces towards other issues, we find that Taha opened up a wide field for the critics who came after him to address a number of critical issues that had a noticeable impact on the critical movement. Critics after Taha did not view ancient poetry as sacred, and this view had positives and negatives in literature and criticism

This research, which I titled "Taha Hussein and his critical vision in the Mu'allaqat of Tarafa bin al-Abd", a descriptive and analytical study, seeks to answer three important questions represented in the problem of the study, which are :

-What are the sources of Taha Hussein's critical vision in the Wednesday Hadith, and how was it formed ?

-What are the patterns of this vision?- What are its manifestations?

The importance of the study stems from the fact that it sheds light on a vital topic that has not received the attention of researchers to study Taha Hussein's critical thought; in which he was influenced by French culture and literature, and the extent of the exaggeration of the doctrine of skepticism Cartesian and Western values and ideas that appeared in his critical views.

The study relied on the descriptive analytical approach that describes phenomena and then subjects them to accurate scientific analysis to reach its goal. It also followed the inductive approach as a framework and course for

this study in order to reach results that bring together divergent ideas in the reader's mind; and because the research is also an applied critical study, this approach helps researchers to clarify and clarify Taha's critical views that he presented in his book. The research came in an introduction, two chapters, a conclusion, and a list of references and sources

Keywords: Cartesian rational criticism, philology and history, Wednesday talk

.

الملخـــــص :

كانت لي مع كتاب حديث الأربعاء وقفاتٌ نقديةٌ تمثلت في ثلاثة أبحاث، والحقيقة الكتاب غني بآراء نقدية كانت لها دور بارز في الحركة النقدية اتجاه الشعر الجاهلي "القديم"، فإذا ولينا قضية الشك في الشعر الجاهلي أدبارنا وولينا وجوهنا شطر القضايا الأخرى، فإننا نجد أن طه قد فتح أمام النقاد الذين جاءوا من بعده مجالا واسعا لعدد من القضايا النقدية التي أثرت تأثيرا ملحوظا في الحركة النقدية. فلم ينظر النقاد من بعد طه للشعر القديم بأنه ذو قدسية، وهذه النظرة كان لها إيجابيات وسلبيات في الأدب والنقد. ويسعى هذا البحث الذي عنونته بـ "طه حسين ورؤيته النقدية لمعلقتي زهير وعنترة "دراسة وصفية تحليلية" إلى الإجابة عن أسئلة ثلاث مهمة متمثلة في إشكالية الدراسة وهي:

ـ ما هي منابع الرؤية النقدية عند طه حسين في حديث الأربعاء، وكيف تشكلت؟

ـ وما أنساق هذه الرؤية؟ ـ وما تجلياتها؟

. وما أوجه الاختلاف والتقارب بين معلقتي زهير وعنترة؟

وتنبع أهمية الدراسة كونها تسلط الضوء على موضوع حيوي لم يحظَ باهتمام الباحثين لدراسة الفكر النقدي لدى طه حسين؛ الذي تأثر فيه بالثقافة والأدب الفرنسي، ومدى غلو مذهب الشك الديكارتي والقيم والأفكار الغربية التي ظهرت في آرائه النقدية.

وقد اعْتمدَتِ الدراسةُ على المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم بوصف الظواهر ثم يخضعها للتحليل العلمي الدقيق ليصل إلى مراده، كما اتبع كذلك المنهج الاستقرائي إطارا ومساقا لهذه الدراسة بغية الوصول إلى نتائج تقرب متباعدات الأفكار في ذهن القارئ؛ ولأنّ البحثَ ـ أيضاـ عبارة عن دراسة نقدية تطبيقية، ولذا فإنّ هذه المنهج يساعد الباحثين في استجلاء ووضوح آراء طه النقدية التي طرَحَهَا في كتابه. وقد جاء البحث في مقدمة، ومبحثين، وخاتمة، وقائمة للمراجع والمصادر.

الكلمات المفتاحية: التحليل المنطقي عند طه، الجمع بين النقد الأدبي والنقد الاجتماعي، كتاب حديث الأربعاء، النزعة العقلانية عنده.

المقدمـــــــة:

طه حسين من أبـــرز النقاد العرب في العصر الحديث، وقد وضع منهجا للنقد سار عليه طيلة رحلته النقدية، وهو نقد عقلاني تحليلي، فلم يكن يقبل الآراء النقدية في الأدب إلا بعد تمحيص وتدقيق، فكان الشك في التراث الأدبي يلازمه، حتى وصل به الحال بأن شك في الرواة المعتدلين الذين عرف عنهم العدل والصدق، وهذه المبالغة في النزعة العقلانية والشك المفرط أوقعت طه في الخروج عن آداب النقد؛ لأنه لم يقدم أدلة مقنعة وكافية لإثبات أرائه وشكوكه، بل كان متأثرا بالمناهج الغربية دون مراعاة لخصوصية التراث العربي، وفي كثير من الأحيان كان طه متسرعا في أحكامه النقدية، فجاءت آراؤه حادةً وصادمةً، فيعمم رأيه على الكل دون تدقيق. وقد تجاوز خطوطا حمراء ما كان ينبغي لمثله أن يقترب منها، فهاجم التراث الديني والتاريخي، فتعامل مع النصوص الدينية كأنه ينتقد نصا شعريا، فاتُّهِمَ على أثر ذلك بالزندقة والإساءة إلى الإسلام.

وعلى الرغم أنه تحرر من التقليد وبحث عن الجديد، فالنقد عنده ليس جامدا في قوالب، بل يجب أن يكون متجددا يناسب عصره، فكتاب حديث الأربعاء برز فيه طه المجدد الذي ينثر القصائد القديمة نثرا يقربها للقارئ. وقد جمع بين النقد الأدبي والنقد الاجتماعي، فالأدب في نظر طه مرآة للمجتمع، فكان طه جريئا في كثير من الأحيان في أحكامه النقدية مما هاجمه الأزهريون وغيرهم مما يغارون على الإسلام.

المبحث الأول ـ رؤية طه النقدية لمعلقة زهير:

يرى طه حسين في كتابه حديث الأربعاء أن زهير كان أكثر الشعراء ميولا للحكمة والتأمل العقلي، ويختلف الاختلاف كله بينه وبين الشعراء الآخرين الذين جاء شعرهم في مغامرات وغزل وحماسة، والحكمة في شعر زهير عدها طه ناتجة عن تجربة طويلة وعمق عقلي للحياة التي عاشها، حتى عُدّ زهير في نظر طه فيلسوفا أكثر منه شاعرا.

ومما اختلف فيه زهير عن الشعراء الآخرين ـ في نظر طه ـ أنه لم يكن كثير المبالغات في شعره، فلم يبالغ في تصوير البطولات والجود لممدوحيه، بل قدم لنا صورا واقعية مقارنة بشعر عنترة وعمرو بن كلثوم. وكان زهير ـ في نظر طه ـ أقدر الشعراء القدماء على خلق البيئة الشعرية وتهيئة الجو الشعري قبل أن يمعن بالسامعين فيما يقصد إليه من الأغراض[1]

فزهير هادئ في قصيدته كلها بل هو في شعره كله هادئ فانظر إليه في مقدمة مطولته تراه محزوناً مذعناً لصروف القضاء. وهو يعبر عن هذا الإذعان في رقة وظرف ووداعة نفس، وحلاوة روح تثير في نفسك الأشجان الهادئة الرقيقة التي تخرجك من طورك العادي، ولا تبلغ بك الحزن الممض، ولا اليأس المهلك ولا الأسى العميق، وإنما هي تحيي في قلبك طائفة من الذكرى البعيدة. التي طال عليها العهد، فلم يبلها ولم يفنها ولم يمحها، وإنما خفف من حدتها وجعلها جديرة أن تثير في النفس شوقاً حلواً، وحزناً هادئاً(2) حين يقول:

أمنْ أمِّ أوفى دمنةٌ لم تكلّمِ　　　بِحومانةِ الدّرّاجِ فالمُتثلّمِ
ودارٌ لها بالرقْمتينِ كأنّها　　　مراجيعُ وشم في نواشرِ مِعْصمِ
بها العينُ والآرامُ يمشينَ خِلفَةً　　　وأطلاؤها ينهضنَ من كلِّ مجْثمِ
وقفْتُ بها من بعدِ عشرينَ حِجّةً　　　فلأيًا عرفتُ الدارّ بعد توهم
أَثَافيّ سُفْعًا في معرّسِ مِرْجلٍ　　　ونُؤيًا كجذْمِ الحوض لم يتثلّمِ
فلما عرفتُ الدارَ قلتُ لربعِها　　　ألا انْعمْ صباحاً أيّها الربعُ واسلمِ(3)

في هذه الأبيات وغيرها نجد طه قد أثنى على أسلوب زهير الذي ميزه عن غيره بالوضوح والاتزان، فجل معانيه غير غامضة وليست معقدة، فشعره قريب من الخطابة والنثر الحكيم منه إلى الأساليب الشعرية المليئة بالمجاز، فكل ألفاظه مهذبة مناسبة لمقام القصيدة.

فقد تأمل طه حسين تلك الأبيات الأولى من معلقة زهير والتي يقف فيها على الأطلال فرأى أنها جاءت متشابهة مع كثير من مقدمات الشعر الجاهلي. ورأى أن كل معانيها مألوفة شائعة بين الشعراء. فلا جديد في تشبيه الرسوم برجع الوشم على المعصم وتصوير الديار آهلة بالوحش بعد أن كانت آهلة بالأحياء، ولا جديد في تسمية تلك الآثار القليلة الباقية بهذه الديار كالأثافي والمرجل والنؤى. فكل هذه التشبيهات والصور والأسماء شائعة ذائعة في هذا الشعر، غير أن الجديد الذي يقدمه زهير في تلك الأبيات أنه لا يطيل الوقوف على الأطلال كغيره من الشعراء، وإنما لمح ذلك في شعره لمحاً، واختلس منه بعض الصور اختلاساً، فكانت صوراً جميلة منها الرائع الذي يبعث في النفوس بهجة كصورة البقر والظباء التي اتخذت من الدار مرتعاً ومقاماً، ومنها القائم الذي يبعق فيها حزناً وأسى كصورة هذه الدار وقد تهدمت

وهجرها الأحبة وتعاقبت عليها صروف الليالي والأيام حتى كاد الشاعر أن ينكرها ولا يتعرف عليها. هذه المقابلة بين الصور المختلفة تظهرنا على مأساة الفراق التي تكبدها الشاعر وتوضح أي طغيان للزمن علينا وعلى المكان[4] ، ولعل هذا التوحد في الحزن بين الشاعر والمكان، هو الذي دفع زهير؛ لأن يحادثه ويلقي عليه التحية في ظرف ودعة، وفي لفظ جميل يسير لا جهد فيه ولا عناء[5]

فزهير يبدو هادئاً لا تستخفه عاطفة مهما تكن، إلا أن هذه الأطلال لا بد وأن تثير بنفسه الذكرى، فيتخيل يوم رحيل الأحبة ويتبعهم بنظره وقلبه معاً، يترسم لهم الطريق، ويتوقع مكان إقامتهم عندما يقول:

تبصّرْ خليلي هل تَرى من ظعائنٍ	**تحمّلنَ بالعلياءِ من فوق جرثُمِ**
جعلنَ القَنَانَ عن يمينٍ وحَزنَهُ	**وكم بالقنانِ من مُحَل ومُحْرَمِ**
علوَن بأنماطٍ عتاقٍ وكلّةٍ	**ورَادٍ حواشيَها مُشاكهةِ الدَّمِ**
ووركْنَ في السُّوبان يعلُونَ متنَهُ	**عليهنّ دلُّ الناعِمِ المُتنعّمِ**
بكرنَ بكورًا واستحرْنَ بسحرة	**فهُن ووادِي الرّسّ كاليدِ للفمِ**
وفيهنّ ملهًى للطيفِ ومنظرٌ	**أنيقٌ لعينِ الناظرِ المتوسّمِ**
كأنّ فُتاتَ العِهنِ في كلِّ منزلٍ	**نزلْنَ به حبُّ الفنا لم يُحطّمِ**
فلما وردن الماءَ زرقاً جمامُهُ	**وضعْنَ عصي الحاضر المُتخيّمِ**
ظهرْنَ من السوبان ثم جزعْنَهُ	**على كلِّ قيني قشيبٍ ومَفْأم[6]**

لقد رأى طه حسين في هذا الوصف ـ الذي يصفه زهير لموكب الأحبة الراحلين ـ وصفاً دقيقاً رائعاً خالياً من كل تكلف، يظهر عليه السذاجة ما يخيل إليك أن صاحبه لم يتكلف فيه عناء ولم يحتمل فيه جهداً، ولم ينفق فيه وقتاً، ولكن احذر أن تنخدع، لم يكن زهير من هؤلاء الشعراء الذين يقولون في غير تكلف، وإنما كان صاحب فن وتجويد، فآية البراعة الصحيحة في الفن، أن تتكلف الجهد، وتحتمل العناء، ثم يخدع الناس عن ذلك، فتخيل إليهم أنك قد أنشأت ما أنشأت كأنه جاء عفو الخاطر[7]

وهذه السمة التي استخلصها طه حسين من شعر زهير في كتابه "الشعر الجاهلي" عاد ليؤكد عليها في عرضه لمعلقة زهير في كتابه حديث الأربعاء من جديد. "فالشعر الجاهلي لم يعرف شاعراً عنى بتنقيحه عناية زهير"[8].

ونحن حينما نتعرض لشعر زهير نجد أنفسنا أمام مدرسة شعرية ذات ملامح محددة في الشعر الجاهلي، تعمد إلى التجويد والصنعة الشعرية، وتتسم صورها الشعرية بالحسية والإغراق في تفاصيل المشبه به[9]

ويبدو أن ما استخلصه طه حسين من نتائج حول شعر زهير – وبخاصة فيما يتعلق بصناعته الشعرية – قد ظل موضع عناية الكثير من الباحثين، بل إن غالبيتهم قد اعتمد تلك النتائج واعتبرها مقدمات لنتائج أخرى تستجد في بحثهم لشعر زهير.10)

وعلى أية حال فلقد التفت طه حسين إلى شيء هام في هذه القصيدة: وهي أنها تخلو من وصف الناقة على غير عادة الشعراء الجاهليين في صياغة قصائدهم، فلقد كانوا – بعد وقوفهم على الأطلال وتذكرهم للرحيل – يتخذون من وصف الناقة للتسرية عنهم ولإمتاع سامعيهم، فالناقة بالنسبة لهم وسيلة للخروج من هذه الديار بما تبعثه من ذكرى أليمة، وبما تثيره من أزمة للشاعر بفقده للأحبة المهاجرين عن هذ الديار. هذه هي سنة الشعراء في صياغتهم للقصيدة الجاهلية[11]. غير أن زهير قد خالفها لأمر ما، يتوقعه طه حسين فيرى أن انشغال زهير عن هذا كله كان نتيجة لرغبته في الولوج سريعاً إلى موضوع قصيدته، وهو الدعوة إلى السلم ومدح هرم بن سنان والحارث بن عوف لدورهما في وأد الحرب بين عبس وذبيان بدفعهما ديات القتلى من الجانبين، وعلى ذلك فإن مثل تلك النتيجة التي استخلصها طه حسين تقودنا إلى القول بأن زهير لم يطل الوقوف على الأطلال لا لأن تلك سمة من سماته؛ ولكن لأنه كان يريد الوصول سريعاً إلى الغرض الذي أنشأ من أجله القصيدة، والذي أشار إليه طه حسين واعتبره سبباً لعدم وصف الناقة، وبالتالي فإن كل ما عرض له زهير قبل مدحه هرم بن سنان والحارث بن عوق يعد تهيئة شعرية لغرض المدح الذي انشغلت به القصيدة طويلاً، وعلى ذلك فإن ما عرض له زهير قبل المدح من أغراض شعرية يعد لوناً من ألوان الصناعة التي تلا تنبع عن ذات ملتهبة بالمشاعر والانفعال بقدر ما تصدر عن ذات مجودة محترفة لهذا الفن، ولكن مثل هذه النتائج إذا أضفنا إليها وصف طه حسين لهذا المدح بالضعف وخلوه من البراعة الشعرية المعتادة عند زهير، فإن ذلك يقودنا إلى وسم المعلقة كلها بالتلفيق المستتر خلف حرفية زهير وصنعته، فنحن لن نلمح في تلك القصيدة أصداء نفسية قوية لذات زهير خلف تلك الأغراض الشعرية المختلفة، وعلى ذلك فنحن نفهم الأسباب التي حدت بطه حسين ليصف زهير بالصنعة الشعرية المجودة، فربما كان اتجاه زهير إلى تلك الصنعة الشعرية المجودة، فربما كان اتجاه زهير إلى تلك الصنعة ناتج عن رغبته في إخفاء

هذا الغياب النفسي من كل أغراض القصيدة، فهو يحب أن يوهم المستمع بأنه مدفوع بمشاعره بينما هو مدفوع بالصنعة والحرفية في صياغته للشعر.

ولقد تأمل طه حسين هذا المدح وهذه الدعوة للسلم كما وردت في شعر زهير الذي يقول فيه:

يمينًا لنِعْمَ السيدانِ وجدتُمَا ... على كلِّ حالٍ من سحيلٍ ومُبْرمِ
تداركتُما عبسًا وذبيانَ بعدما ... تفانُوا ودقوا بينهُم عِطرَ منشَمِ
وقد قلتُما إن ندركَ السلمَ واسعًا ... بمالٍ ومعروفٍ من القولِ نسْلَمِ
فأصبحتُما منها على خيرِ موطنٍ ... بعيدين فيها عن عُقُوق ومأثمِ
عظيمين في عليا معدٍّ هديتُما ... ومن يَسْتبحْ كنزًا من المجدِ يعظمِ
تُعفّى الكُلُومُ بالمئين فأصبحتْ ... ينجّمُها من ليس فيها بمُجرمِ
ينجِّمُهَا قومٌ لقومٍ غرامةً ... ولم يُهْريقُوا بينهم مِلْءَ مَحْجَمِ
فأصبحَ يجري فيهُمُ من تِلادِكُمْ ... مغانِمُ شتى من إفالٍ مُزَنَّمِ(12)

لقد رأى طه حسين هذا المدح باهتًا ضعيفًا، لا يتسم بالقوة التي تعرف لزهير في مدائحه، "فهو مدح لاحظ له من البراعة الشعرية التي نعرفها لزهير، وإنما يلتمس مدح زهير في قصائد أخرى، لم تشغله فيها الحكمة عن الحياة الواقعة، ولم تشغله فيها الجماعة عن الفرد، ولم تشغله فيها المنفعة العامة عن منفعته الخاصة، أما في هذه القصيدة فزهير شاعر قومه، وهو يتحدث عنهم، ويتحدث إليهم، وهو يصرفهم عما يكرهون، وعما يكره لهم".(13)

وبرغم ما يؤكده كلام طه حسين من قوة الرابطة بين الشاعر وقومه واهتمامه بشئونهم، إلا أن هذا الرأي يؤكد ضعف غرض المدح عند زهير خاصة إذا كان مدفوعًا بالمنفعة العامة لا الخاصة، وعلى ذلك فإن هذا المدح الذي حفلت به الأبيات السابقة يعد ضعيفًا من وجهة نظر طه حسين لأنه ارتبط بحدث واحد ولم يكن المجال متسعًا أمامه للعديد من الصفات المعهودة في المدح، اللهم إلا الكرم والحكمة؛ وذلك نظرًا لأن الهدف من إنشاء تلك القصيدة كان الرغبة في إعلاء قيمة السلم ونبذ الحرب، ولذا فلقد وجدنا صفات كثيرة تختفي من هذا المدح كالشجاعة والإقدام ودحر الأعداء، وغيرها من الصفات التي حفل بها مدح زهير، والدكتور شوقي ضيف يؤكد ذلك حين يقارن بين هذا المدح بما ورد فيه من وصف لهرم بن سنان والحارث بن عوف بالكرم

والجود والحكمة وبين مدح آخر لهما في قصيدة أخرى لزهير، فإذا بهذا المدح يحفل بالإضافة إلى هاتين الصفتين – بالعديد من الصفات المستحسنة في المدح الجاهلي كالشجاعة، ونجدة المستغيث، وذكر فضل الآباء...(14)

إذن فالمدح في قصيدة زهير تأتي أهميته من أهمية الدعوى إلى السلم، ولا يقوم بذاته أو ينفصل عن تلك الغاية، وهنا يبدو زهيرًا مثاليًا في تصوره للقيم التي يجب أن تسود مجتمعه وبيئته، لذا فليس غريبًا أن نرى منه هذا الهدوء وهذه الروية، فهو رجل متأمل يستخلص رحيق الحكمة من صروف الدهر ونوائبه، ويقدم لقومه تلك الحكمة العملية ويبرهن عليها، فهو صاحب خبرة ونظر بشئون تلك البادية وأحداثها.

لقد أعرب حسين عن رغبته في التوقف أمام قطعتين شعريتين في تلك المعلقة، الأولى يقول فيها زهير:

أَلا أبلغْ الأخلافَ عنّي رسالةً — وذُبيانَ هل أقسمتم كلَّ مُقْسَمِ
فلا تكتمنَّ اللهَ ما في نُفُوسِكم — ليخفَى ومهما يكتمْ اللهُ يعلمِ
يؤخرْ فيوضعْ في كتابٍ فيدخرْ — ليومِ الحسابِ أو يعجّلْ فينقمِ
وما الحربُ إلا ما علمتُم وذقْتُم — وما هو عنها بالحديثِ المُرَجَّمِ
متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً — وتضرى إذا ضرّيتُمُوها فتضرمِ
فتعرككُم عركَ الرّحى بثِفالِها — وتلقحُ كِشَافًا ثم تنتجُ فتتئمِ
فتنتج لكم غِلمان أشأمَ كلَّهُم — كأحمرَ عاد ثم ترضِع فتفطمِ
فتغلُلْ لكم ما تغلُّ لأهلِها — قُرًى بالعراقِ من قفيزٍ ودِرْهمِ(15)

مما عرف عن زهير أنه ذو نزعة أخلاقية عالية فنراه يحب السلم ويذم الحروب والسلب والنهب:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم...

وهذه النظرة جعلت زهير يختلف عن شعراء عصره، فلم يبحث عن الجوانب الفنية الشعرية فقط، بل نراه يقدم لنا درسا في الأخلاق.

ويرى طه حسين في تلك القطعة أنها تنبئ عن شيخ مجرب، كثير الانتفاع بالتجربة، وإن كانت تجاربه قليلة في النوع، فذلك بحكم إقامته في البادية، ولقد لاحظ طه حسين في تلك الأبيات أن زهيرًا يحس الأشياء حسًا قويًا، ويشعر بها شعورًا عنيفًا، ويصورها تصويرًا رائعًا، بل إن التشبيهات في تلك الأبيات تتزاحم حتى ليكاد بعضها أن يركب بعضًا.(16)

وتلك سمة سبق أن أكد عليها طه حسين في كتابه "في الشعر الجاهلي" عندما تعرض لزهير وشعره، فجعله رائد مدرسة الشعر الجاهلي تعني بالصنعة الشعرية التي تركز على التشبيه، والكناية والمجاز والاستعارة أعظم تركيز، وتجود في ذلك بحسب طاقة كل شاعر من شعراء تلك المدرسة، غير أنهم يتفقون جميعًا في الاهتمام "بالمشبه به" ويذهبون إلى تعدده مع الإحاطة بجميع جوانبه الحسية بصورة دقيقة، رغبة في إظهار مشاعرهم وأفكارهم تجاه "المشبه" وتلك السمة تبدو واضحة في هذه الأبيات التي بين أيدينا" فالحرب مشبهة بالرحى، وهي مشبهة بالناقة، وهي مشبهة بالنار، وهي مشبهة بالأرض الخصبة التي تغل لأهلها الغلة الموفورة، وكل هذا في لفظ جزل وسهل معًا".(17)

ثم يعرض طه حسين لتلك الأبيات التي تحمل قصة حصين بن ضمضم الذي كاد أن يشعل الحرب ثانية بن عبس وذبيان، عندما قتل رجلاً من عبس انتقامًا لمقتل أخيه، لولا تدخل هرم بن سنان والحارث بن عوف فأقاما السلم مرة ثانية بدفعهم دية القتيل:

لعمري لنِعْمَ الحي جرّ عليهم — بما لا يؤاتيهم حصين بن ضمضمِ
وكان طوى كشحا على مستكنةً — فلا هو أبداها ولم يتقدّمِ
وقال سأقضي حاجتي ثم أتّقى — عدوى بألف من ورائي مُلجّمِ
فشدّ فلم يفزعْ بيوتًا كثيرةً — لدى حيثُ ألقتْ رحلَها أمّ قشعمِ
لدى أسدٍ شاكي السلاح مقذّفٍ — له لبد أظفارُهُ لم تُقلّمِ
جريءٍ متى يُظْلَمْ يعاقبْ بظلمه — سريعًا وإلا يُبْدَ بالظُّلمِ يظلمِ(18)

لقد رأى طه حسين في تلك الأبيات صورة صادقة ورائعة لهذا الرجل البدوي الذي يجمع إلى الشجاعة والإقدام، مكرًا ودهاء وثقة بالنفس واعتمادًا على القبيلة، وقدرة على الكتمان، هذا فيما يتعلق بمعنى تلك الأبيات وعلاقته بالبيئة، أما الألفاظ فلقد رآها جزلة تملأ الفم دون أن تتبعه وتروع السمع دون أن تشق عليه.(19)

ولا يستطيع طه حسين أن يخفيَ إعجابَهُ بهذا التمثيل البديع في قول زهير:

رعوا ظمأهُم حتّى إذا تم أوردوا — غِمارًا تفرّى بالسلاحِ وبالدمِ
فقضُوا منايا بينهم ثم أصدرُوا — إلى كلاٍ مُسْتوبلٍ متوخمِ(20)

لقد رأى هذا التمثيل مشتقًا من الحياة البدوية بما عرف فيها عن ورود الإبل للماء وصدورها عنه، فهم كالإبل يردون الحرب ويصدرون عنها بعد أن تشفى غلة ظمأهم للدم والثأر.

لقد كان زهير إذن مرتبط ببيئته، مرتبط بقومه، يصوغ تشبيهاته من كل ما حوله وهو بارع متقن في اختيار المشبه به، وإبراز العلاقة بينه وبين المشبه في وضوح تام – كما سبق أن أوضحنا.

ومهما يكن الأمر فلقد اكتفى طه حسين بهذا القدر من تلك المعلقة ولم يعرض لأبيات الحكمة فيها. وهذا راجع بطبيعة الحال إلى ضيق المقال الأدبي عن الإحاطة بكل جوانب تلك القصيدة، وراجع أيضًا إلى رغبة طه حسين في إثارة الاهتمام بالقصيدة لا دراستها بصورة تحليلية دقيقة.

حقيقة نجد في ثنايا تحليل طه لمعلقة زهير كثيرا من إعجابه الشديد بها، إلا أنه لم يغض الطرف عن إطالة زهير لقصيدته التي تعد عيبا من عيوبها، فقد كان زهير يكرر ويطيل الوصف والتشابيه كثيرا، قد يبعث في شعور القارئ مللا، لا سيما في مقدمتها الطللية. وهذا النقد الذي وجهه طه لمعلقة زهير يبدو لنا مخالفا لما عرف عن الشاعر الذي كان يلقّب بعبيد الشعر وشاعر الحوليات؛ لأنه كان يعيد النظر في قصائده ويدقق فيها قبل نشرها لمدة حول كامل. فشعره محكم البناء ومتين، وقصيدته مترابطة أجزاؤها، لا يوجد بها ضعف ولا تفكيك.

وقد تناول العديد من النقاد والباحثين تلك المطلولة بعد طه حسين وكأنهم استجابوا لما أراده طه حسين من وراء عرضها، فرأينا غالبيتهم يسيرون في دراستها وفق الخطوط العريضة التي وضعها طه حسين في عرضه لها ولشاعرها زهير، فهذا هو الدكتور شوقي ضيف يقول: "إن زهيرًا كان لا يترك جانبًا من جوانب حرفته دون أن يغرب فيه، فمن ذلك ما يلاحظه القارئ في نماذجه من أنه إذا تحدث في موضوع مطروق كوصف الإبل أو وصف الأطلال عمد إلى الألفاظ الغريبة، فإذا كان الموضوع غير مطروق من مثل الحكم أو المدح، لم يعن باللفظ الغريب، كأنه يكتفي بغرابة المعاني الجديدة نفسها، وليس من شك في أن هذه العناية باللفظ الغريب في الموضوعات المطروقة تمثله لنا باحثًا عن كل ما يمكن من طرائف يضيفها إلى فنه". (21)

المبحث الثاني ـ رؤية طه النقدية لمعلقة عنترة:

آخـر المعلقات التي تعرض لها طه حسين بالدراسة والتحليل معلقة عنترة، وهو يبدو مكرها على ذلك لما يثور في نفسه من الشكوك حول قصة هذا الشاعر الذي

أحاطت بسيرته الأساطير والمبالغات، وهو لذلك يترك لصاحبه مهمة عرض تلك القصيدة، في شيء من الزهد وعدم الاكتراث بما يقول، فلقد عرض طه حسين لهذا الجدال العنيف الذي يمكن أن يثور حول القيمة التاريخية لهذا الشعر ولشاعره، ولقد ساق هذا الجدال في صورة خصومة بينه وبين صاحبه، وبينما كان طه حسين زاهدًا في إثارة الشك حول هذا الشاعر وقصيدته22) ، جعل صاحبه يلح في إصرار على إثارة قضية الشك التي تحيط بعنترة وشعره، ويتخذ من تعاقب الزمن وتفاوته سببًا في إصرار طه حسين على شكه، بينما الأمر في حقيقته لا يتحمل شكًا ولا رفضًا ولا إنكارًا، ولعل طه حسين في اصطناعه لذلك الصاحب أراد كما قلنا سابقًا أن يضع على لسانه بعض الأفكار التي تعتمل في نفسه وتتصارع في ذاته، وربما تحمل تناقصًا فيما بينها بحيث لا يصح أن تنسب لرجل واحد، لذا فهو يضع على لسانه قوله الذي يوجهه لذاته". صدقني إن العقل الإنساني يغر نفسه فتغر، ويخدع نفسه فتنخدع، وهو مغرور حين يصدق، وهو مغرور حين يكذب، وهو مغرور في حالي الشك واليقين جميعًا". (23)

ويقول في موضع آخر على لسان صاحبه "لا تسرف في الشك إذن، ولا تغل في المراء، ولا تستقبل أحاديث عنترة وشعره بهذا الاستخفاف، فإن لكل عصر عنترته، والرجل العاقل هو الذ يجتنب الغرور ما استطاع اجتنابه، ويطرح الشك ما استطاع إطراحه، ويصدق ما يقول الناس دون إغراق في البحث والاستقصاء، وفي التحقي والتمحيص". (24)

هكذا يحاول طه حسين أن يخرج من مأزق الشك القديم الذي تعامل به مع هذا الشعر، وهو مع ذلك لا يريد أن يعتذر عن موقفه السابق، وإنما يريد أن يتجاوزه إلى موقف جديد يطلع فيه القراء على القيمة الفنية لهذا الشعر دون أن يهدم موقفه المتشكك منه، لذا فلقد اصطلح مع صاحبه وربما مع نفسه على أن تعرضه لهذا الشعر محكوم بغاية واضحة، تختلف عما ينبغي له في قاعة الدرس الجامعي من التحقيق والتوثيق والتمحيص، وتلك الغاية الواضحة والمحددة سلفًا هي أن "نلتمس هذا الجمال الفني الذي يعجب القلوب ويلذ العقول، ويرد إلى النفوس أملاً بعد يأس، وابتهاجًا بعد اكتئاب، ونشاطًا بعد فتور! فهل تستطيع أن تنكر أن أحاديث عنترة وما يضاف إليه من الشعر مملوءة كلها بهذا الجمال الفني". (25)

بل إن طه حسين يضع على لسان صاحبه سببًا لقبول هذا الشعر – سبق أن

عارضه ورفضه – هذا السبب هو قدم هذا الشعر وإعجاب القدماء به وتوافرهم على ترديده والعناية به.

ونحن لسنا في حاجة إلى أن نعيد إلى الأذهان موقف طه حسين كاملاً في تلك القضية، ولكننا نجده في تلك المرحلة مضطرًا إلى التماس تلك الأسباب والأعذار على لسان صاحبه الذي نكاد نجزم أنه الذات الشاعرة لطه حسين التي تتعارض مع ذاته العاقلة وتصطدم بها في تلك المرحلة(26) ، لقد آن لهذه الذات الكارهة لفكرة التجرد والحيادية حيال هذا الشعر – أن تبزغ وتظهر في صورة نائية عن شخصيته الأكاديمية – وأن تتخذ صورة صاحبه الذي اختلقه من خياله، وهو لذلك يتيح الفرصة كاملة لذلك الصاحب أو لتلك الذات كي تعبر عن وجودها الفعلي بعرضها لقصيدة عنترة، بينما يأخذ هو بوجوده العقلي مقعد المستمع هذه المرة، ولعل أكبر دليل على ما نذهب إليه هو هذا التعاطف الشديد الذي بدا في عرض معلقة عنترة، فلقد اتسم عرض هذه المعلقة بالارتجالية فلم يلتزم بترتيب الأبيات والأغراض، بل ظهر فيه التعبير عن الإعجاب الشديد بمعاني هذا الشعر وألفاظه بصورة إجمالية، فلم يعمد هذا العرض إلى تحليل كل غرض وإظهار القيم الجمالية فيه، وإنما تناول القصيدة في مجملها بالاستحسان والمدح، وإن كان قد ذكر بعض أبياتها فإنما كان ذلك من باب التدليل والتوضيح.27)

لقد بدأ عرض تلك المعلقة باستحسان للغة التي صيغت فيها والتي لم تقم عقبة بين المعاني التي قصدها الشاعر وبين السامع أو القارئ على العكس من لغة لبيد التي تضيق بها الأذن وتجهد القارئ، "فأما قصيدة عنترة هذه فأقرأها على الشباب، فسيفهمون منك أكثرها، لا يحتاجون إلى تفسير، ولا إلى ترجمة، لأنها واضحة جلية، ولأنها سهلة اللفظ، قريبة المعنى، ليس بينها وبين نفوسهم حجاب من هذه الجزالة التي تكاد تبلغ الغرابة".(28)

ولقد سار عنترة في معلقته هذه على سيرة الشعراء في نظمهم للقصيدة، واتبع سنتهم فذكر الديار، ووصف الناقة، وافتخر بالكرم والجود والنجدة، وغير أنه سهل ولم يعقد ويسر ولم يعسر وارتفع عن الإسفاف والابتذال، دون أن يتورط في الغلظة والإغراب وانتهى إلى معان قلما انتهى إلى مثلها غيره من الشعراء.

وقصيدته هذه تبدو أسيرة نغمة سائدة تؤول إليها وحدة القصيدة. هذه النغمة تتمثل في استحضار عنترة لصورة حبيبته منذ ابتدأ إلى أن انتهى.(29)

لقد رأى طه حسين في عنترة رقة قلب وقوة عاطفة، فهو حريص على مودة صاحبته، متحبب إليها، متهالك عليها، ولقد لاحظ أن هذه الرقة ليست مقصورة على صاحبته فحسب، بل تمتد لتشمل كل ما حوله من إنسان وحيوان وجماد، ولقد بدا هذا في كل معلقته التي يقول في مطلعها:

يا دارَ عبلةَ بالجواءِ تكلّمِي وعِمِي صباحًا دارَ عبلةَ واسلمِي

فوقفتُ فيها ناقتي وكأنَهَا فدنٌ لأقضِي حاجة المُتلّـومِ

وتحُلُّ عبلةَ بالجواءِ وأهلُنا بالحَزْنِ فالصّمّانِ فالمُتثلـمِ

حُيِّيتَ من طللٍ تقادمَ عهدُهُ أقوَى وأقفرَ بعد أمِّ الهيثمِ

حلّتْ بأرضِ الزائرين فأصبحتْ ُسرًا عليّ طلابُك ابنةَ مخرمِ

علّقتُها عرضًا وأقتُـلُ قومَها زعمًا لعمرُ أبيك ليس بِمزعَمِ

ولقد نزلتِ فلا تظُنّي غيرَه منّي بمنزلةِ الحبيبِ المُكْرمِ(30)

وتتجلى رقة عنترة بالقياس إلى عدوه الذي يقتله ويمثل به حين يقول:

فشككتُ بالرمحِ الأصمِّ ثيابَهُ ليس الكريمُ على القنا بمُحرَّمِ(31)

بل إن هذه الرقة لتبرز واضحة في صورة لم يحفل الشعر القديم بمثلها، تلك الصورة التي تطلعنا على علاقة هذا الفارس الشجاع بفرسه، فهو يشقى لشقائه، ويرى بكاءه ويسمع توجعه حين تعبث به رماح الأعداء ويجعل نفسه ترجمانًا له. فيقول: (32)

فازورَّ من وقعِ القنا بلبانِهِ وشكا إلى بعبرةٍ وتحمحُمِ

لو كان يدري مَا المحاورةُ اشتكى ولكان لو عَلِمَ الكلامَ مُكَلِّمِي

لقد رأى طه حسين كل معاني الرجولة العربية تتجسد في هذا الشاعر، فهو رقيق دون أن تنتهي الرقة به إلى الضعف، وهو شديد دون أن تنتهي به الشدة إلى القسوة، وهو صاحب شراب دون أن يفسد ذلك مروءته وخلقه، وهو لا يقصر عما ينبغي للرجل الكريم من العطاء والندى، وهو مقدم إذا كانت الحرب، وهو عفيف إذا قسمت الغنائم، وقد أرجع طه حسين تمتع عنترة بتلك الصفات إلى أنه عز بعد ذلة، وتحرر بعد رق، فهو قد تألم في طفولته وصباه وشبابه، وهذا الذل والألم الذي داخل نفسه واختلط بها صفي عواطفه ولطف مزاجه، فكأن الألم الذي عاناه قد طهر نفسه وروحه من كل الصفات البغيضة والمرذولة، وهذا التعليل الذي يقدمه طه حسين لنقاء

الذات عند عنترة يبدو متأثرًا فيه بظاهرة التطهير النفسي أو "الكترسيس" التي تحدث عنها أرسطو في كتابه "فن الشعر" عندما كان يتحدث عن المأساة[33]

ولقد تابع العديد من النقاد والباحثين طه حسين في إثبات تلك الصفات لعنترة من خلال عرضهم لمعلقته، فهذا دكتور شوقي ضيف يقول: "تكاملت الفروسية عند عنترة، فلم تصبح فروسية حربية فحسب، بل أصبحت فروسية خلقية سامية، بها الحب الطاهر العفيف الذي يجعل من المحبوبة مثلاً أعلى، والذي يرتفع صاحبه عن الغايات الجسدية الحسية إلى غايات روحية تنم عن صفاء النفس ونقاء القلب، وفيها التسامي عن الدنايا والنقائض الذي إلى يملأ النفوس بالألفة والإباء والعزة والكرامة والحس المرهف والشعور الدقيق".[34]

ولقد لاحظ طه حسين أن كل هذه القصيدة أو أكثر هذه القصيدة يجري مجرى المثل، وينشد على اختلاف العصور والبيئات والظروف، ذلك لأن هذا الشعر مرآة صافية صادقة لكل نفس كريمة ولكل قلب ذكي ولكل خلق نقي، لا يقتصر ذلك على جزء منها ولا على غرض من أغراضها، وإنما ينسحب ذلك على القصيدة بكاملها، فلا فرق بين غزل ووصف، وفخر ووعيد[35] ، ولقد استشهد طه حسين على صدق قوله بالعديد من الأبيات التي تجري مجرى المثل السائر كقول عنترة:

وإذا شربتُ فإنّني مستهلكٌ   مالي وعرضي وافرٌ لم يكلمِ
وإذا صحوتُ فما أُقصِّرُ عن نَدَى   وكما علمْتِ شمائلي وتكرُّمي[36]

وكقوله:

يُخبركِ من شهِدَ الوقيعةَ أنّني   أغشى الوغى وأعفُّ عند المغنم[37]

وكقوله:

ولقد خشيتُ بأنْ أموتَ ولم تدرْ   للحربِ دائرةٌ على ابني ضمضمِ
الشاتِمي عِرضِي ولم أشْتمهَما   والناذِرين إذا لمْ ألْقَهُمَا دمِي[38]

وينهي طه حسين حديثه حول المعلقة بأن يبدي إعجابه الشديد بتلك الأبيات التي يصف فيها عنترة ثغر صاحبته بفأرة المسك وبالروضة الأنف، التي ألح عليها الغيث حتى زكا نبتها وحتى كثر فيها الذباب مبتهجًا نشوانًا متغنيًا بما يجني من طيباتها. فترى في هذه الأبيات صورًا جديدة على الشعر الجاهلي تحمل من الجدة والدهشة ما يثير الإعجاب والاهتمام معًا.39)

وصفوة القول إن طه حسين لم يكن دائما موضوعيا في شكه، بل نجده في كثير من الأحيان مبالغا في استخدامه للمنهج الديكارتي، ولا يقدم دليلا على شكه لإثبات ما ذهب إليه. ولكن مما يميزه عن غيره من النقاد أنه متنوع في النقد بين الأدب القديم والحديث، فلم تقتصر دراساته للشعر الجاهلي والعباسي، بل صبّ جل اهتمامه بالشعر الحديث، فحلل قصائد شوقي وحافظ والسياب، فجل نقده جاء عقليا لا عاطفيا، فلم يمجد الشعراء؛ لأنهم أصحاب شهرة، ومما يعاب عليه أنه كان جريئا في آرائه؛ لأنه يحمل فكرا ممزوجا بالفلسفة الغربية والتراث العربي.

الخاتمة:

توصلتِ الدراسةُ إلى النتائجَ الآتيةِ:

ـ يبدو لنا أنّ طه حسين مهتمٌ باستجلاء ملامح النص الشعري في ذلك العصر، فيرى أن أهم العوامل الفاعلة في تكوين النص الشعري هي الشخصية بما تحمله من مقومات متفاوتة من ذات لأخرى، ثم تأتي بعد ذلك اللغة بما تحمله من طاقات إبداعية ودلالات مختلفة ومستويات متباينة، ثم تأتي البيئة بما تمثله من قيم وتقاليد وأعراف وبما تفرضه من أفكار ونزعات.

ـ يرى طه أن الأخلاق النبيلة لكلا الشاعرين "زهير وعنترة" تبلورت في معلقتيهما، فزهير يعدُّ شاعرَ الحكمةِ والأخلاقِ، فهو يبدو عنده كالمصلح الاجتماعي أقرب منه شاعرا، كدعوته إلى السلام ونبذه للحرب، والوفاء بالعهود والمواثيق، وحثّه على الكرم والإحسان، أما الأخلاق الحميدة في معلقتي عنترة فتمثلتْ في الشجاعة والدفاع عن شرف القبيلة وكل ضعيف، لا سيما المرأة والشيخ والأطفال، فالشجاعة في نظر عنترة ليست مجرد إطاحة بغريمه، بل وسيلة لإثبات الكرامة وحماية النفس. وتمثلت النبل الكريمة في معلقة عنترة كونه ابن أَمَةٍ سوداءَ فكان يعاني من التمييز العنصري، فجعل من شعره إثباتا لاستحقاقه للشرف والفروسية. وأنه يحافظ على شرف المرأة، وأنه مخلص في حبه لابنة عمه، وأنه يضحي بنفسه دفاعا عن قبيلته.

ـ وعلى الرغم من اختلاف المعلقتين إلا أنهما يعكسان القيم والأخلاق النبيلة التي كان العرب يتبارون بها، الشجاعة والعزة والمروءة والكرم...فزهير في نظر طه يمثل الأخلاق الفلسفية بينما عنترة يمثل الأخلاق البطولية، وهما في نظره جزء وركيزة أساسية في حياة الرجل العربي الذي يسكن في بيئة صحراوية.

التوصيات:

يوصي الباحث باستنطاق الموروث الأدبي في سياق جذوره، وضرورة الاشتغال فيه أكثر، وإعادة الاعتبار للأدب القديم، الذي تنكّرتْ له نظريةُ الأدبِ الحديثةِ، وينبغي علينا دراسة فكر طه حسين، لكن بحرص شديد وتحريره من العقائد الفاسدة التي تمس الدين وتراث أمتنا المجيد.

الهوامـــــــــــش:

1- انظر حديث الأربعاء، د. طه حسين ج -1، ط11، دار المعارف مصر ص 85.
2-انظر المرجع السابق ج،1 ص 86،87.
3- شرح المعلقات السبع، أبوعبد الله الحسين بن أحمد الزوزني، لجنة التحقيق في الدار العالمية، بيروت، 1992م ص58،59.
4- انظر صوت الشاعر القديم، د. مصطفى ناصف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1991م ص 239،240.
5-انظر حديث الأربعاء، د. طه حسين ج1، ص87.
6-المعلقات السبع، الزوزني، ص 60،62.
7- انظر حديث الأربعاء، د. طه حسين ج1، ط11، دار المعارف مصر، ص 88،89.
8-تاريخ الأدب العرب العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، ط11، دار المعارف ص 306.
9-الفن ومذاهبه في الشعر العربي، د. شوقي ضيف، ط11، دار المعارف، 2006م، ص 25.
10-منهج طه حسين في دراسته للأدب الجاهلي، أحمد صلاح كامل، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف محمد زكي العشماوي، جامعة الإسكندرية، 2002م، ص247.
11- انظر في النقد الأدبي عند العرب، د. محمد طاهر درويش، ط1، مكتبة الشباب، 2000م ص 214، وانظر الشعر العربي بين الجمود والتطور، د. محمد عبد العزيز الكفراوي، ط2، دار القلم بيروت، 1998م ص 34 وما بعدها.
12-شرح المعلقات السبع، الزوزني، ص62، 64.
13حديث الأربعاء، د. طه حسين، ج1، ص89.
14-انظر العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، ص309،310.
15-المعلقات السبع، الزوزني، ص64- 66.
16-انظر حديث الأربعاء، د. طه حسين، ج1، ص90.
17- المرجع نفسه، ج1، ص90.
18-شح المعلقات السبع، الزوزني، ص66،67.
19-انظر حديث الأربعاء، ج1، ص91.
20- المعلقات السبع، ص67،68.
21-الفن ومذاهبه في الشعر العربي، د. شوقي ضيف، ص32.

22-منهج طه حسين في دراسته للأدب الجاهلي، أحمد صلاح كامل، ص252.
23-حديث الأربعاء، ج1، ص150.
24-المرجع نفسه، ج1، ص151.
25-حديث الأربعاء، ج1، ص151- 152.
26-انظر تقسيم د. طه حسين للذات بين عاقلة وشاعرة كما ورد في تحقيق النيابة – قرار النيابة في كتاب في الشعر الجاهلي ص30 ومجلة فصول المجلد التاسع أكتوبر 1990، ص223.
27-منهج طه حسين في دراسته للأدب الجاهلي، أحمد صلاح كامل، ص253.
28-حديث الأربعاء، ج1، ص153.
29-انظر المرجع السابق، ج1، ص153، 154.
30-المعلقات السبع، الزوزني، ص111،110.
31- المعلقات السبع، ص119.
32-حديث الأربعاء، د. طه حسين، ج1، ص154- 155، وانظر المعلقات السبع، ص122.
33-انظر فن الشعر، لأرسطو، ترجمة: د. شكري عياد، فن، ط4، مكتبة النهضة المصرية، 1993م ص48.
34-العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، ص374.
35- حديث الأربعاء، د. طه حسين، ج1، ص156.
36-المعلقات السبع، الزوزني، ص117.
37-المرجع نفسه، ص118.
38-المرجع نفسه، ص123.
39-منهج طه حسين في دراسته للأدب الجاهلي، أحمد صلاح كامل، ص256.